﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ٥٥﴾ [الفرقان: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تقبيحُ حالِ المشركينَ بعدَ بيانِ دلائلِ التَّوحيدِ

لمّا ذكر البيان القرآني دلائلَ التَّوحيدِ؛ عادَ إلى تهجينِ سيرةِ المشركينَ في عبادةِ الأوثانِ، وإشراكِهم بهِ مَنْ لا يَقْدِرُ على نفعٍ ولا ضرٍّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَهِيرٗا﴾: (ظهر) المعنى المحوريُّ: القوَّةُ والبُروزُ[2]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: ظَهَرَ عليهِ: غلبَهُ، ويقالُ: ظاهرتُهُ: عاونتُهُ، قالَ تعالى: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ [الممتحنة: 9][3]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الظَّهْرِ الَّذي هو الجارحةُ؛ لأنَّ المُعاونَ يساعدُ صاحبَهُ بجوارحِهِ، وأقواها ظَهْرُهُ، ثمَّ جُعِلَ عبارةً عن كلِّ مُعاوَنةٍ وإنْ كانَتْ بغيرِ الظَّهْرِ حتَّى باللِّسانِ[4]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾، أي: وكان الكافر على ربِّه هيِّنًا ذليلًا مُعينًا للشَّيطانِ على ربِّهِ لا قدر ولا وزن لهُ عند اللهِ كالمُلقى وراءَ الظهر.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّعجيبُ ممَّنْ يَعْبُدُ مِنْ دونِ اللهِ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ

يَعْبُدُ هؤلاءِ المشركونَ باللهِ مِنْ دونِهِ آلهةً لا تنفعُهم؛ إذا هم عَبَدوها، ولا تضرُّهم؛ إنْ تركوا عبادتَها، ويتركونَ عبادةَ مَنْ أنعمَ عليهِم هذهِ النِّعَمَ الَّتي لا كِفاءَ لأَدْناها، ومَنْ قُدرتُهُ التي لا يمتنعُ عليهِ معَها شيءٌ أرادَهُ، ولا يتعذَّرُ عليهِ فعلُ شيءٍ أرادَ فعلَهُ، وكانَ الكافرُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 475، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(3) الراغب، المفردات: (ظهر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (ظهر).

مُعينًا للشَّيطانِ على ربِّهِ، مُظاهِرًا لهُ على معصيتِهِ، أو المعنى: وكانَ الكافرُ على ربِّه هيِّنًا غيرَ مُلتفَتٍ إليهِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

يـعـبـدونَ مِـنْ دونِ اللهِ أحجارًا لا تـنـفـعُـهـم بشيءٍ

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ واوُ الحالِ[2]، والمعنى: هذهِ قُدرةُ اللهِ القاهرةُ، معَ أنَّهم لم يَعتبِروا، ولم يُدرِكوها، والحالُ أنَّهم يعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ أحجارًا أو ما يُشبِهُها، لا تنفعُهم بشيءٍ قطُّ بحيثُ يعبدونَها رجاءً، ولا تستطيعُ ضررًا لهُم، بحيثُ تكونُ العبادةُ دفعًا لهذا الضَّررِ، فهي لا حياةَ لها، وهي دونَهم، ولكنَّ الوهمَ جعلَهم يعبدونَها معَ هذهِ الحالِ[3].

ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ استئنافيَّةً، والجملةُ بعدَها مستأنفةٌ استئنافًا نحويًّا لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، مسوقةً للشروعِ في تقبيحِ جنوحِ المشركينَ الى عبادةِ الأوثانِ[4].

غرضُ الخبرِ في الآيةِ:

التَّعجيبُ مِنْ حالِ المشركينَ

الغرضُ مِنَ الإخبارِ بقولِ الحقِّ تقدَّسَتْ أسماؤُهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ التَّعجيبُ مِنِ استمرارِ المشركينَ في الشِّركِ، معَ وضوحِ الدَّلائلِ والبراهينِ الَّتي مِنْ جملتِها ما ذُكِرَ في الآياتِ السّابقةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

عـدمُ إجـداءِ الدَّلائلِ المُقلِعةِ عـن الـشـرك مع المشركين

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ للدَّلالةِ على تجدُّدِ عبادتِهم الأصنامَ واستمرارِ ذلك، وعدمِ إجداءِ الدَّلائلِ المُقلِعةِ عنها في جانبِهم[5].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 284.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5301.
(4) الدرويش، إعراب القرآن: 7/ 31.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.

وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّهم لو فعلوا ذلكَ مرَّةً؛ لكانَ في غايةِ العجبِ، فكيفَ وهو على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ؟ فيكونُ ذلكَ زيادةً في تبشيعِ عبادتِهم المذكورةِ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

تدني الكفار في عبادتهم غيرَ اللهِ

قولُهُ ﷻ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ معناهُ: ويَعْبُدونَ بدلَ اللهِ ما لا ينفعُهم ولا يضرُّهم، أو معناهُ: ويَعْبُدونَ مُتجاوزينَ اللهَ تعالى ما لا ينفعُهم، ولا يضرُّهم، والتَّعبير بـ﴿دُونِ﴾ يشير إلى أنَّ كلَّ ما عبده الكفار غيرَ اللهِ؛ فهو دون؛ للدلالة على أنَّ كلَّ آلهتِهم الَّتي يعبدونها غايةٌ في الدونيَّة والحقارة.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ في: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الإنكارِ على المشركينَ

لمّا كانَ السّياقُ للتَّعجيبِ مِنْ عبادةِ المشركينَ ما لا ينفعُهم، ولا يضرُّهم، والإنكارِ عليهم في ذلكَ؛ عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾؛ لأنَّهُ مُستجمِعٌ لصفاتِ الجلالِ والكمالِ الَّتي يستحقُّ بها الإفرادَ بالعبادةِ، فيكونُ أنسبَ بهذا السّياقِ، والمعنى: ويَعْبُدونَ مِنْ دونِ اللهِ - المُستجمِعِ لصفاتِ العظَمةِ، بحيثُ إنَّهُ لا ضرَّ ولا نفعَ إلّا وهو بيدِهِ - ما لا ينفعُهم شيئًا، ولا يضرُّهم[2].

وبالجملةِ فالتَّعبيرُ بلفظ الجلالة يشعرُ بالمهابة، التي ينبغي أن يُخاطبَ بها الكفارُ حين لا تنفع معهم الدلائل.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالظّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

زيادةُ التَّشنيعِ والتَّعجيبِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ويعبدونَ مِنْ دونِهِ ما لا ينفعُهم، ولا يضرُّهم)؛ لتقدُّمِ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 409.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 409.

﴿دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ لما في إظهارِ لفظِ الجلالةِ مِنْ زيادةِ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ على المشركينَ بعُدولِهم عن عبادةِ المُستجمِعِ لصفاتِ الجلالِ والكمالِ، المُستحِقِّ وحدَهُ للأُلوهيَّةِ والعبادةِ.

وللفرقِ الواضحِ بين اسمِ الربِّ ولفظِ الجلالة؛ إذ الأوَّلُ مُشعرٌ بكثرةِ العطايا والنِّعَمِ الآتيةِ من اللهِ، والثاني يشعر مع المهابة بحقوق الألوهيَّة التي ينبغي أن يؤدّيها العبدُ للّه.

دلالةُ ﴿مَا﴾ والمرادُ بها في: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾:

﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ موصولةٌ، أي: ويعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ تعالى آلهةً لا شيء فيها ينفعُهم، ولا يضرُّهم، فكلُّها في ذلك سواء.

إفـادةُ العمـوم في كلِّ ما يعبده المشركون

والمرادُ بـ﴿مَا﴾: الأصنامُ، أو كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ ﷻ، أي: ويعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا ينفعُهم إنْ عَبَدوهُ، ولا يضرُّهم إن لم يَعْبُدوهُ[1].

والتَّفسيرُ الأوَّلُ ناظرٌ إلى أنَّ الكلامَ واردٌ في حقِّ كفّارِ قريشٍ قبلَ غيرِهم، والتَّفسيرُ الثّاني ناظرٌ إلى العُمومِ في ﴿مَا﴾، والخلافُ يسيرٌ؛ لأنَّ العِبرةَ بعُمومِ اللَّفظِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

الـدَّلالـةُ على استمرارِ انتفاءِ النَّفعِ والضَّرِّ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ النَّفعِ والضَّرِّ مِنْ آلهةِ المشركينَ؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ التَّجدُّد الاستمرارَ، وإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ؛ أفادَ تجدُّد الانتفاءِ واستمراره، وفي ذلكَ مبالغةٌ في إظهارِ عَجْزِ هذهِ الآلهةِ.

علَّةُ تكرارِ (لا) في: ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾:

كُرِّرَتْ (لا) في قولِ اللهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ لتأكيدِ النَّفي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 226.

الاحـــتراسُ من فهْمِ غير المراد

المستفادِ مِنْ ﴿لَا﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾، وفي ذلكَ مبالغةٌ في نفيِ النَّفعِ والضَّرِّ عن آلهةِ المشركينَ، وهو ملائمٌ غايةَ الملاءمةِ مقامَ التَّقبيحِ والتَّشنيعِ والتَّعجيبِ.

أو للدَّلالة على أنَّهم لا يملكون النفع والضُّرَّ منفردَين، ولا يملكونهما مجتمعَين، ولأنَّ في حذفها إيهامًا بنفي النَّفع وإثبات الضُّرِّ.

براعةُ نفيِ الضُّرِّ بعدَ نفيِ النَّفعِ:

التَّنبيهُ على انتفاءِ شُبْهةِ عَبَدةِ الأصنامِ

نفيُ الضُّرِّ بعدَ نفيِ النَّفعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ للتَّنبيهِ على انتفاءِ شُبْهةِ عَبَدةِ الأصنامِ في شِرْكِهم؛ لأنَّ موجِبَ العبادة إمّا رجاءُ النَّفعِ، وإمّا اتِّقاءُ ضَرِّ المعبودِ، وكلاهما مُنتَفٍ عنِ الأصنامِ بالمشاهدةِ[1].

بلاغةُ الطِّباقِ في الجمعِ بينَ النَّفعِ والضُّرِّ في الذِّكرِ:

تمكينُ عجزِ الأصنامِ في نفسِ المشركين

في الجمعِ بينَ النَّفعِ والضُّرِّ المنفيَّينِ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ رِعايةٌ للطِّباقِ بينَهما؛ ليرى المُخاطَبُ صورتينِ متقابلتينِ: إحداهما عدمُ النَّفعِ، والأخرى عدمُ الضُّرِّ، فيتمكَّنَ في نفسِهِ عَجْزُ الأصنامِ.

علَّةُ تقديمِ نفيِ النَّفعِ على نفيِ الضُّرِّ:

رجاءُ الإحسانِ يوجِبُ الإقبالَ على المُحسِنِ في السِّرِّ والإعلانِ

لمّا كانَ السّياقُ لتعدادِ نعمِهِ سبحانَهُ، وكانَ الحاملُ للإنسانِ على الإذعانِ رجاءَ الإحسانِ أو خوفَ الهَوانِ، وكانَ رجاءُ الإحسانِ يوجِبُ الإقبالَ على المُحسِنِ في السِّرِّ والإعلانِ، والخوفُ يوجِبُ الإقبالَ ظاهرًا فقطْ؛ قُدِّمَ نفيُ النَّفعِ على نفيِ الضُّرِّ، فقيلَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 409.

سرُّ الإتيانِ بالاستئناف:

إفادةُ التَّعليل

جملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ استئنافيَّةٌ، لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، واقعة موقعَ التَّعليل لما سبق والجارية مجرى المثل، أو الإيجاز المُثبت للحُكم، أمّا الأول؛ فعلى معنى: (وكان الكافر عند ربِّه ذليلًا مهينًا)، وأمّا الثاني؛ فعلى معنى أنَّ الكفّار يُظاهر بعضهم بعضًا، أو يظاهرون الشيطان في مواجهة دينِ اللّه.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ﴾:

الدَّلالةُ على الدَّوامِ والاستمرارِ

﴿وَكَانَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ هي الَّتي للدَّوامِ قبلُ وبعدُ، لا أنَّها تُعطي مُضيًّا فقط، وجعلُ الخبرِ عنِ الكافرِ خبرًا لـ (كانَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَهُ بالخبرِ أمرٌ مُتقرِّرٌ معتادٌ مِنْ كلِّ كافرٍ[1]، لا ينفكُّ عنه أبدًا؛ لأنَّ هذه الصفة كالأمور الجبليَّة التي تفيد (كان) معها الدَّوام والاستمرار.

دلالةُ التعريف بـ(أل) في: ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾:

جميعُ الكفارِ يُظاهر بعضهم بعضًا

عرَّف النظم الكريم بـ(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ وهي للجنس، أي: إنَّ جنس الكفار يتَّصف بهذه الصفة، أو للعهدِ، والمرادُ بالكافرِ: أبو جهلٍ؛ لأنَّ الآيةَ نزلَتْ فيه، أو للاستغراق المفيد لعموم الأفراد.

والمعنى: أنَّ كل الكافرينَ يُظاهِرُ بعضُهم بعضًا على إطفاءِ نورِ دينِ اللّهِ[2]، وأنَّ كلَّ كافرٍ على ربِّهِ ظهيرٌ[3]، والأولى حملُهُ على العُموم على كلِّ الأوجهِ؛ لأنَّ خُصوصَ السَّببِ لا يقدحُ في عُمومِ اللَّفظِ، ولأنَّهُ أوفقُ بظاهرِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[4]؛ فقد عُبِّرَ فيهِ بضميرِ الجمعِ، ولأنَّ استغراقَ المفردِ أشملُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 57.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 287.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 56.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 476.

بلاغةُ الإتيان بالظّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

التَّسجيلُ على كفرِهم وبيانُ أنَّهُ علَّةُ الحُكمِ

إنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ للعُمومِ - كما هو الرّاجحُ - فالظّاهرُ أنْ يقالَ: (وكانوا)؛ لتقدُّمِ ذكرِهم في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾؛ لنَعْيِ كُفرِهم عليهِم[1]، وبيانِ الوصفِ الحاملِ لهُم على ما لا يفعلُهُ عاقلٌ[2].

نكتةُ الإتيانِ بـ﴿ٱلۡكَافِرُ﴾ مفردًا:

عـجـزُ الـكـافـرِ يجعله منفردًا وإن كـانـوا جماعة

عُبِّرَ بالإفرادِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾، ولم يقل: (وكانَ الكفّارُ) بالجمعِ؛ لإفادةِ الإفرادِ تحقيرَهم والاستهانة بجمعهم، أي: وكانَ الكافرُ معَ علمِهِ بضَعْفِهِ وعَجْزِهِ على ربِّهِ ظهيرًا[3]، أو أنَّ استغراقَ المفردِ أشملُ[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾:

الدَّلالةُ على أنَّ الكافرَ مُتعالٍ مُستكبِرٌ

التَّعبيرُ بـ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ دالٌّ على أنَّ الكافرَ - وإنْ كانَ مَهينًا في نفسِهِ حقيرًا - فاعلٌ فعلَ العالي على الشَّيءِ القويِّ الغالبِ لهُ، المُعينِ عليهِ؛ وذلكَ لأنَّهُ يجعلُ لِما يعبدُهُ مِنَ الأوثانِ نصيبًا ممّا تفرَّدَ اللّهُ بخلقِهِ، ويعاندُ أولياءَ اللّهِ مِنَ الأنبياءِ وغيرِهم، وينصبُ لهم المكايدَ والحروبَ، ويُؤذيهم بالقولِ والفعلِ، معَ علمِهِ بأنَّ اللّهَ معَهم، فكانَ هذا فعلَ مَنْ لا يعبأُ بالشَّيءِ، والكلامُ في الحقيقةِ تهكُّمٌ بالكفّارِ؛ لأنَّهم يفعلونَ ما يلزمُ عليهِ هذا اللّازمُ الَّذي لا يدورُ في خَلَدِ عاقلٍ[5].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 36.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 132.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 132.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410 - 411.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة على ﴿ظَهِيرًا﴾:

تعجيلُ مَدارِ الذَّمِّ والتَّقبيحِ

لمّا كانَ الكافرُ لا يمكنُ أنْ يُصافيَ مُسلِمًا ما دامَ كافرًا، وكانَتْ مصافاتُهُ لغيرِهِ حاصلةً إمّا بالفعلِ أو بالقوَّةِ؛ عُدَّتْ مصارمتُهُ لغيرِهِ عدمًا، فكانَتْ مصارمتُهُ خاصَّةً بأولياءِ اللّهِ، وكانَ ذلكَ أشدَّ لذمِّهِ، وقد دُلَّ على ذلكَ بتقديمِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ على قولِهِ: ﴿ظَهِيرًا﴾[1].

أو لمّا كانَ المقامُ لتقبيحِ فعلِ الكافرِ والتَّعجيبِ منهُ؛ قُدِّمَ ما هو مَدارُ الذَّمِّ والتَّقبيحِ، وهو وقوعُ المظاهرةِ على ربِّهِ، فقيلَ: ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾.

يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تقديمِ ﴿عَلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ وتأخيرِ ﴿ظَهِيرًا﴾ رِعايةً للفاصلةِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

التَّعريضُ بأنَّ الكافرَ عاقٌّ لمَوْلاهُ

عُبِّرَ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ للتَّعريضِ بأنَّ الكافرَ عاقٌّ لمَوْلاهُ[3]، أي: وكانَ الكافرُ على ربِّهِ المُحسِنِ إليهِ ظهيرًا[4].

وفيهِ إشارةٌ إلى تعامي الكافرِ عنِ الدَّلائلِ، أي: وكانَ الكافرُ على ربِّهِ - الَّذي ذُكِرَتْ آثارُ ربوبيَّتِهِ ﷺ - ظهيرًا[5].

المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿ظَهِيرًا﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ فيهِ تأويلانِ:

الظَّهيرُ هو المُعينُ أوِ المطروحُ

أحدُهما: أنَّ الظَّهيرَ هو المُعينُ، فتكونُ الآيةُ بمعنى توبيخِ الكفارِ؛ لأنَّهم يُعينونَ على ربِّهم غيرَهم مِنَ الكفرةِ، ويُعينونَ الشَّيطانَ بأنْ يُطيعوهُ، ويُظاهِروهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 132.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 57.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 410.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 36.

والثّاني: أنْ يكونَ الظَّهيرُ (فعيلًا) مِنْ قولِكَ: ظَهَرْتُ الشَّيءَ؛ إذا طرحتَهُ وراءَ ظَهْرِكَ، واتَّخَذْتَهُ ظِهْرِيًّا، فيكون معنى الآيةِ احتقارَ الكفرةِ[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بصيغةِ (فعيلٍ) في: ﴿ظَهِيرًا﴾:

المبالغةُ في اتِّصافِ الكافرِ بالمظاهرةِ على ربِّهِ

عُبِّرَ بصيغةِ (فعيلٍ) في قولِهِ ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ للمبالغةِ في اتِّصافِ الكافرِ بالمظاهرةِ على ربِّهِ جلَّ وعزَّ، وفي ذلكَ مزيدُ مناسبةٍ لمقامِ الإنكارِ والتَّوبيخِ، وفي ذلك أيضًا تناسبٌ في اللَّفظِ والمعنى، فمِن حيثُ اللفظُ كلاهما مفرد في الظاهر، ومن حيث المعنى فكلاهما يفيد الكثرة أو العموم، فالأوَّل يفيد العموم بالاستغراق أو الجنس أو القياس على العهد، والثاني يفيد الكثرة بدلالة الصيغة (فعيل)؛ إذ تدلُّ على القليل والكثير.

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية:

تأكيدُ الجملةِ معنى الكلامِ الَّذي قبلَها

جملةُ: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ تذييلٌ لِما يتضمَّنُ الكلامُ السّابقُ مِنَ المعنى على التَّقديرينِ في معنى الظَّهيرِ.

فعلى الأوَّلِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إخبارٌ عن استعظامِ ما ارتكبوهُ مِنْ عبادةِ غيرِ اللهِ، ثمَّ أُكِّدَ ذلكَ بأنَّ عادةَ الكافرِ أنْ يُظاهِرَ الشَّيطانَ.

وعلى الثّاني: الكلامُ نعَى عليهِم سوءَ أفعالِهم، وأنَّهم ممَّنْ لا يُلتفَتُ إليهم، ولا إلى صنيعِهم؛ لأنَّهم يعبدونَ مِنْ دونِ اللهِ ما لا ينفعُ، ولا يضرُّ، وفيهِ شائبةٌ مِنَ الإنكارِ، ثمَّ أُكِّدَ ذلكَ بأنَّ الكافرَ على ربِّهِ هيِّنٌ مَهينٌ[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 215.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 11/ 267.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»